

للهجرة والتي كان بعضها يحمل اسم موسى بن نصير، كانت مكتوبة باللاتينية، على الرغم من أنها متأخرة عن حركة الإصلاح النقدي التي قام بها عبد الملك في المشرق (12)، بل انه توجد سبع رسائل بعثت من رومة الى رجال الدين المسيحي في الاقاليم الافريقية مؤرخة في منتصف القرن العاشر الميلادي ومكتوبة باللاتينية، مما يدل على ان الذين تلقوا تلك الرسائل كانوا يعرفون هذه اللغة (13).

ومهما يكن، فقد استطاع المغرب على عهد الادارة ان يعيش في ظل نوع من الاستقرار ساعد على توطيد الاسلام ونشر اللغة في مناطق غير قليلة، ونستطيع ان نمزو توسع حركة التعريب في هذا العهد الى خمسة عوامل:

1 - حالة الاستقرار التي سادت مناطق نفوذ الادارة، خاصة وأن مؤسس دولتهم لم يدخل المغرب غزيا وانما دخله لاجئا، وخاصة كذلك أن البربر سموا اليه وولوه امرهم وبايعوه عن رضى وطواعية.

2 - هروبة الادارة .

3 - انشاء جامع القرويين الذي كان له دور كبير في النهوض باللغة العربية والفكر الاسلامي في المغرب. وربما كان ذلك الدور ضعيفا في هذه الفترة ولم يتقوا الا في الفترات التالية، ومع ذلك لا نريد ان ننكره حتى في مراحلها الاولى، خاصة ونحن نعرف ان المساجد جميعها وفي كل البلاد الاسلامية كانت تعتبر مدارس علم الى جانب انها مراكز عبادة. لذلك لا ينبغي - ونحن نشير الى هذا العامل - ان نفعل الكر الجوامع الاخرى، وخاصة في سبتة التي ظلت تحمل شمل الثقافة فترة غير قصيرة.

ويذكر ابو عبد الله المالكي في «رياض النفوس» أسماء تسعة من هؤلاء الفقهاء المشرة هم:

ابو الجهم عبد الرحمن بن نافع (1) .
ابو مسعود سعد بن مسعود التجيبي (2) .
ابو عبد الرحمن الحلي (3) .
اسماعيل بن عبيد الانصاري المعروف بتاجر الله (4) .

موهب بن حى المصافري (5) .
حيان بن ابي جيلة القرشي (6) .
ابو تمامة بكر بن سودة الجدامي (7) .
ابو سعيد جعثل بن ماهان بن عمير (8) .
اسماعيل بن عبيد الله بن ابي المهاجر (9) .
واغلب الظن أن ما يقال من أن حسان بن النعمان

«دون الدواوين» (10) ونشر العربية وجعلها لغة البلاد الرسمية لا يخلو من مبالغة، واغلب الظن أن ما يقال كذلك من أن خطبة طارق بن زياد دليل على انتشار اللغة العربية بين البربر لا يخلو بدوره من مبالغة.

وربما كان تسرب المذهب الخارجي الى المغرب في هذه الفترة (11) عاملا من اهم عوامل تأخر حركة التعريب عن ان تساير نشر الاسلام. والسبب ان امر الدين والمذهب غلب الخوارج وسيطر عليهم ولم يدع لهم مجالا لنشر اللغة، فقد اغفلوا امرها ولم يكونوا ينظرون اليها سوى انها لغة الكتاب المقدس ولغة العلم لا حاجة تدعو اليها في الحياة العامة. ولعل هذا مما يفسر لنا سر بقاء كثير من المناطق التي انتشر فيها المذهب الخارجي على لهجتها البربرية لم تحاول ابدالها بلغة الدين الجديد.

وربما كان من الادلة على ان اللغة كانت لا تزال تتمتع ان العملة التي ضربت في نهاية القرن الاول

- (1) ص: 72 (2) ص: 66 - 67 (3) ص: 64 (4) ص: 69 - 72 (5) ص: 73
(6) ص: 73 (7) ص: 74 (8) ص: 75 (9) ص: 75 (10) البيان المغرب ص: 29
(11) ما كادت حركة الفتح تبدأ في المغرب حتى بدأت فئات الخوارج المنهزمة في المشرق تغد عليه وخاصة منها الاباضية والصفرية تحاول الترويج لمذهبها الذي وافق طبيعة البربر الاستقلالية وميلهم الى رفض كل سيادة تفرض عليهم سواء كانت عنصرية او دينية.
(12) انظر مقالا حول تعريب الشمال الافريقي لوليام مارسى W. Marçais «Annales de l'Institut d'Etudes Orientales», Faculté des Lettres de l'Université d'Alger, T. 4, 1938, p. 8.
(13) المصدر السابق، ومن اهم ما تفيد هذه الرسائل انه كان يوجد سنة 1050 م خمسة قساوسة وانه لم يبق منهم سنة 1076 الا ثلاثة.

4 - خروج الفارسية في رحلات علمية الى المشرق والقيروان والاندلس وعودتهم الى بلادهم وقد صقلت سنتهم وزودوا بالآثار وعلوم جديدة لم يكن لهم بهذا عهد من قبل ، نذكر منهم :

أ - دراس بن اسماعيل الفاسي ، رحل الى المشرق والقيروان والاندلس . دارسا ومدرسا ، وعاد الى فاس حيث توفي سنة 357 .

ب - ابا جيدة بن احمد البزناسي الفاسي ، رحل الى المشرق وكان عالما بالفقه المالكي والشافعي ، وهو صاحب كتاب « الفتوى » الذي ألف في الوثائق على المذهب الشافعي ، توفي بفاس سنة 365 .

ج - عبد الرحيم بن احمد الكتامي السبتي المعروف بابن المجوز ، رحل الى الاندلس والقيروان ، وكان من فقهاء المالكية ، توفي سنة 413 .

5 - كثرة الوفود العربية التي قصدت فاس في هذا العهد ، قادمة اليها من الاندلس . والقيروان . اما القبروايون « وكانوا ثلاثمائة اهل بيت (1) » فقد وفدوا حوالي سنة 189 واقاموا في المدوة اليسرى ، وعمروها حتى عرفت بمصدوة القرويين . واما الاندلسيون « وكانوا جمعا كثيرا يقال اربعة آلاف اهل بيت (2) » فنزلوا بالمدوة اليمنى وعمروها حتى أصبحت تسمى مدوة الاندلس . وكانوا قد هاجروا من بلادهم على اثر ثورة الربض التي قامت على عهد الحكم بن هشام سنة 206 .

ويعرض ابن ابي زرع اسماء بعض القبائل والاشخاص الوافدين فيقول : « وفي سنة تسع وثمانين ومائة وفدت على ادريس رضى الله عنه وفود العرب من بلاد افريقية وبلاد الاندلس في نحو الخمسمائة فارس من القيسية والازد ومدحج وبنسي يحصب والصدف وغيرهم ، فر ادريس بوفادتهم واجزل صلاتهم وقربهم ورفع منازلهم وجعلهم بطانته دون البربر فاعتز بهم لانه كان فريدا بين البربر ليس معه عربي فاستوزر حمير بن مصعب الازدي وكان من فرسان العرب وساداتها ولا يبه مصعب مآثر عظيمة بافريقية والاندلس ومشاهد في غزو الروم كثيرة ، واستقصى منهم عامر ابن محمد بن سعيد القيسي

من قيس هيلان ، وكان رجلا صالحا ورعا فقيها سمع من مالك وسفيان الثوري وروى عنهما كثيرا ثم خرج الى الاندلس برسوم الجهاد ثم جاز الى المدوة فوفد بها على ادريس فيمن وفد عليه من العرب ، ولم تزل الوفود تقدم عليه من العرب والبربر من جميع الافاق فكثرت الناس وضافت بهم مدينة ويلي (3) .

ولعلنا نستطيع ان نضيف الى هذه العوامل اربعة عوامل اخرى لا شك انها ساعدت على التعريب :

1 - قرب اللهجة البربرية - وقد تأثرت بالفينقية - من اللغة العربية .

2 - عدم مقاومة اللهجة البربرية للغة العربية الا في المناطق الداخلية النائية ، اما في المدن والسواحل والمراكز الهامة فقد كان السكان لا يرون بأسا في تعلم اللغة الجديدة طالما انها لغة الفاتحين ، فقد افوا اتخاذ لغة الفاتح ومزجها بلقمتهم ، اذ ليس من شأن هذه الطبقة من السكان - وهي طبقة لها مصالح - ان تقاوم بل انها تهادن وتداهن وتتملق لتبلغ اغراضها وتحقق مصالحها . ومن هنا كانت هذه الطبقة اسرع من غيرها الى تعلم اللغة العربية .

ولعل مما يعطي اهمية لهذا العامل ان اللغة لا توجد في الواقع ولا تمارس ولا تنطلق الا في المدن والمراكز المتجمعة حيث يتحرك الناس ويتحدثون ، على عكس البرادي حيث يلقب الصمت على الفلاحين الذين يقضون الساعات الطويلة في الحقول متباعدين ساكتين .

3 - تقدير المغاربة المسلمين للقرآن الكريم واعجابهم بلفته واهجازه .

4 - تهجير الفواج من المغاربة في شكل سبي الى المشرق وعودة بعضهم الى المغرب وقد تعلموا اللغة العربية فقد « قال الليث بن سعد : لما قدم موسى بن نصير الى افريقية قبل فتحه الاندلس ومعه جماعة من الناس اخرج ابنا له يسمى عبد الله الى بعض نواحيها فاتاه بمائة الف رأس ثم وجه ابنا له آخر يسمى مروان الى ناحية اخرى فاتاه بمائة الف رأس ، ثم توجه بنفسه الى ناحية اخرى فاتى بمائة الف رأس ، فبلغ الخمس يومئذ ستين الف رأس . قال الليث فلم

(1) الاستقصاء ج 1 ص 73 .

(2) المصدر السابق .

(3) « الانيس المطرب القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » لابي عبد الله محمد بن عبد الحليم المعروف بابن ابي زرع : مطبوع على الحجر بفاس دون تاريخ . صفحة (14) .

1 - قوة الدولة في مجالات الدين والسياسة والاقتصاد وما نتج من هذه القوة من استقرار يمثت الطمانينة في نفوس المغاربة وثبت العقيدة في قلوبهم وفتح لهم فرص التعلم والدرس .

2 - الوحدة مع الأندلس وما حملت الى المغرب من روافد في جميع ميادين العلم والحياة فتحت للمغرب آفاقا حضارية وثقافية ، فقد اقبلت ونسود العلماء والفقهاء والادباء من الأندلس الى المغرب في تدفق لم يكن له مثل ، ووفد على ابن تاشفين « من كل علم فحولته حتى اشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم واجتمع له ... من اعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الاعصار (2) » . وكذلك فعل ابنه علي ، فلم « بزل .. من اول امارته يستدعي اعيان الكتاب من جزيرة الأندلس وصرف عنايته الى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك (3) » .

3 - انشاء المدارس والرباطات في مختلف المراكز بقصد تثبيت الوعي الديني والاصلاح الاجتماعي ، وبقصد نشر التعليم وتعميم الثقافة . واهم هذه المعاهد كلها جامعة ابن يوسف التي اسسها علي بن يوسف بن تاشفين في مدينة مراكش .

4 - عناية المرابطين بالثقافة ، فقد كانوا شغوفين بالعلم محبين لرجالهم في كثير من الصدق والتفاني والاخلاص . ولا عجب فالدولة قامت على اساس من العلم والاصلاح . واذا كان يوسف بن تاشفين قليل المعرفة باللغة والثقافة العربية ، فانه كان - باجماع المؤرخين - محبا للعلم مقربا لاهله ، ونقول قليل المعرفة ولا نقول جاهلا - كما يحلو لبعض الباحثين ان يصفوه - لانه لا شك نال من هذه المعرفة قسطا ابان دعوته ابن ياسين ومرابطته معه .

ومع ذلك فالباحث في كتب الطبقات سواء منها الأندلسية او المغربية لا يلبث ان يكشف النقاب عن اسماء كثير من امراء الدولة وكبرائها الذين كانت لهم عناية خاصة بالعلم امثال :

يسمع بمثل سبايا موسى بن نصير في الاسلام . قال ابو شيبة الصديقي : قدم مروان بن موسى بن نصير من السوس الاقصى وهو يجر الدنيا جرا بالسبسي ، فلما قدم رسوله على موسى خرج معه وجوه الناس لتلقاه ، فلما التقيا قال مروان بن موسى : مروا لكل من يلقتني مع ابي بوصيفة وصيفة ، فلما امر بذلك سمع موسى للناس ضوضاء وصياحا وراى لهم حركة فقال : ما هذا ؟ قالوا : مروان ابنك امر الناس بوصيفة وصيفة ، قال موسى : مروا لهم من عندي بوصيف وصيف . فانصرف الناس كلهم ومع كل واحد منهم وصيف ووصيفة (1) .

وليس من شك في ان المغرب - لهذه العوامل مجتمعة وخاصة قدوم الأندلسيين في هجرة منظمة تضم كثيرا من الفقهاء ورجال العلم - قطع مرحلة في التعريب لا يستهان بها ، كان من المنتظر ان تمقبتها مراحل اخرى لولا انه تعرض في اواخر ايام الادارة وبعدها لاضطراب شديد ظل يعانيه حتى عهد المرابطين .

وكان محتما ان يتأثر سير التعريب بهذا الاضطراب ، خاصة وانه كانت لا تزال للبربر قوة ومنعة ومراكز لم تخضع بعد للإسلام . ومن غريب الامر ان تكون العوامل التي ساعدت - وكان من الممكن ان تساعد اكثر - على نشر اللغة العربية هي نفسها العوامل التي خلقت هذا الاضطراب واضرمت ناره . فقد بدا العرب - بعد ان عزوا وكثر عددهم - يستبدون بالامور ، ويوزعون بينهم المناصب واخذتهم النخوة العربية القبلية ، فكان ان شق المغاربة لهم عصا الطاعة ، وكان ان دخلت البلاد في عهد مظلمة من الفوضى نتج عنها ان تاخر امر اللغة وامر الدين كذلك .

وبعد قرون من الاضطراب والخمبول ، اتيح للمغرب ان يعرف على عهد المرابطين حياة مستقرة لم تلبث ان خلقت نهضة شاملة اثرت في مختلف مجالات الحياة وخاصة في مجال اللغة العربية والثقافة الاسلامية . واطننا نستطيع ان نعزو هذه النهضة التي شملت التعريب الى عوامل اهمها :

- (1) ضميعة في بحث الدكتور محمود مكي : Egipto y la historiografía arabico-española . صفحة 224 (مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد - العدد الخامس سنة 1957 - عدد خاص بمناسبة مرور خمس سنوات على انشاء الصحيفة) .
- (2) المعجب لعبد الواحد المراكشي تحقيق العلمي والريان . طبعة القاهرة . صفحة 163 - 164 .
- (3) المصدر السابق صفحة : 173 .

اللفظ العربي من جراء انتقاله من بيئة الى بيئة اخرى
مغايرة ومختلفة .

ومع ذلك فقد لجأ الموحدون الى البربرية وسيلة
للاصصال بالجماهير والتأثير عليها ، فالمهدي يدرس
بالبربرية ويؤلف بها كتبه في المذهب ويامر بالتسداء
للصلاة بها على حد اتهام المأمون له (7) ، وعبد المومن
يكتب لولائه بأن « يؤمر الذين يفهمون اللسان الغربي
ويتكلمون به ان يقرأوا التوحيد بذلك اللسان (8) » و
« كانوا لا يقدمون للخطابة والامامة الا من يحفظ
التوحيد باللسان البربري (9) » . ولكننا نرى ان مجال
البربرية كان محدودا لا يتعدى الدعوة الدينية ، وان
العربية لانتشارها كانت قد غدت اداة الدولة في جميع
المصالح والمرايق .

ونستطيع ان نعزو هذا الانتشار الى العوامل
الآتية :

1 - هجرات بني هلال وبني سليم للمغرب ،
وكان قد استقدمهم المنصور (10) بعد ان قدموا
الطاعة اثر انتصاره على حليفهم ابن غانية . وكان لهذه
الهجرات اثر كبير جعل ابن خلدون يرى ان « العرب

زاوي بن مناد بن عطية الله بن منصور الصنهاجي
المشهور بابن تقسوط (1) .

خلف بن خلف الله الصنهاجي (2) .
عمر بن امام بن المعتز الصنهاجي الملقب
بالفقيه القالد (3) .

الامير المنصور محمد بن انجاج داود بن عمر
الصنهاجي اللمتوني (4) .

الامير ابراهيم بن يوسف بن تاشفين المعروف
بابسن تميشنت (5) .

ابو بكر بن ابراهيم المعروف بابن تافلوت (6) .
ولعل حركة التعمير سارت بعيدا على عهد
الموحدين حيث نشط نظم مسائل اللغة العربية ،
وحفظ متونها . وازدهرت دراستها ودراسة العلوم
اللسانية المتصلة بها ، وشاعت في لغة التخاطب بين
مختلف طبقات الشعب لدرجة ان من يتتبع المقابلات
التي اوردها ابن هشام في كتاب « لحن العامة » بين
الكلمات العربية والكلمات المغربية العامية لا يجد
الفروق كامة الا في المعنى انجديد الذي اكتسبه

1 (التكملة لكتاب الصلاة لمحمد بن الابرار القضاي ج 1 صفحة 89 طبعة كودبرا .

2 (الجدوة لابن القاضي صفحة 115 طبعة حجرية .

3 (الشوف الى رجال التصوف ليوسف بن يحيى التاداي المعروف بابن الزيات تحقيق ادولف فور معهد
الابحاث العليا المغربية سنة 1958 صفحة 198 .

4 (التكملة ج 1 صفحة 193 .

5 (المصدر السابق ج 2 صفحة 616 ووفيات الاميان ج 2 صفحة 488 .

6 (مقدمة ابن خلدون صفحة 519 - 520 .

7 (الاستقصا ج 2 صفحة 212 .

8 (رسائل موحدية صفحة 39 نشر بروفنسال .

9 (القرطاس لابن ابي زرع ، صفحة 46 .

10 (انظر تفاصيل اخبار هاتين القبيلتين في الاستقصا ج 2 من صفحة 145 الى 158 ، والقرطاس صفحة
154 ، وتاريخ ابن خلدون ج 6 صفحة 12 . ويبدو ان استدعاء العرب واستقدامهم للمغرب بدا على
عهد عبد المومن (انظر المن بالامامة لابن صاحب الصلاة ص 172 - 173 ، تحقيق عبد الهادي التازي)
وعلى عهد يوسف بعده (المصدر السابق ص 412 - 413 - 414 - 415) . ويقول ابن صاحب
الصلاة ان يوسف امر في مراكش « بدخول اشياخ العرب والوفود للمباينة واخذ العهد عليهم في ذلك
فدخلوا ... وتمت بيمتهم » . ص (433) وكان قد امر « ... بتمييز المررب المذكورين وان
يحضروا بين يديه في رحبة قصره العتيق بدار الحجر داخل حضرة مراكش ... فابتدوا بالدخول
عليه ... على ترتيب توحيدهم اولا في قبائلهم السابقة لهذا الامر العزيز وعشائرهم فكان الذي ابتدا
اول يوم قبيلة زغبة لتقدمهم في التوحيد وامروا ان يدخلوا في كل يوم بعدد معلوم من القبيل المأمور
له فتماذي تمييزهم على هذا الترتيب الغريب مدة خمسة عشر يوما يدخلون لهدوة حتى صلاة الظهر
ثم يرجعون بطائفة اخرى من بعد صلاة الظهر الى آخر النهار على ترتيب القبائل المذكورة والعشائر »
(صفحة 434 - 435) .

ان تعفرت الاندلس .

كل هذه العوامل كان لها اكبر الاثر في انشاز اللغة العربية على نطاق واسع شمل الحواضر والبوادي والجبالي والسهول حيث عاش الوافدون مع البربر حياة واحدة جهنتهم بتجانسون معهم ويشادلون اساليب العيش والاعراف . مما زاد في تغفل العربية وتمكنها من الالسنه لدرجة اصبح البربر كلهم على حد قول الفريد بين يتقنون اللغة العربية في جبال الاطلس (5) وغدوا - كما يقول كوتبي - يستكسرون الاصل البربري ويرفضون الانساب اليه ولا يكتفون باستعمال اللغة العربية نحسب بل يؤكدون انهم عرب وانسه لا تحري في عروقهم نقطة من الدم ليست بمرية (6) . وهو راي يؤكد ما جاء في دائرة المعارف الاسلامية من ان البربر « تغيروا عظيما لاختلاطهم بالمغرب حتى ليستحيل تمييزهم في المنب الاحيان (7) » .

له يكن المغرب لهم في الايام السابقة بوطن وانما انتقل اليه في اواسط المائة الخامسة افريق من بني هلال وسليم اختلطوا في الدول هناك فكانت اخبارهم من اخبارها . . . واما اخر موطن العرب فكانت برقة (1) » ومثل هذا يراه ابو القاسم الزباني حيث يقول انه « له بن بن المغرب كنه احد من قبايل العرب الي ان جرحه المنصور الموحدى بمكيدة الجهاد (2) » .

2 - وفود جماعة من غز مصر (3) - وهم طائفة من العرائ اتركوا الاسلام حانقوا بني هلال وبني سليم في انضمامهم لسورة ابن غانية .

3 - وفود جماعة من عرب بني معقل كانوا يدورهم حنفاء لبني هلال (4) .
4 - زيادة توافد الاندلسيين على المغرب بعد

- 1 ج 6 ص 4 من تاريخ ابن خلدون .
- 2 الترجمة الكبرى في اخبار العمور برا وبحرا صفحة 69 نشر الاستاذ عبد الكريم الفيلالي ا وزارة الباء المغرب سنة 1967 . وقد علق الناشر على هذا الكلام برأي غريب قال فيه : « يلاحظ ان المؤلف لا يعدل منعه الي ان قبائل بني سليم وبني هلال ورباح وصباح وبني معقل وهي قبائل قدمت منذ الفتح العربي الاول من صعيد مصر الي عموم المغرب توجد خصوصا بالجنوب » .
- 3 انظر المعجب صفحة 288 .
- 4 انظر الاستغما ج 2 من صفحة 159 حتى 162 .
- 5 A. Bel. La religion musulmane en Berbérie (établissement et développement de l'Islam en Berbérie), p. 204.
- 6 E. F. Gautier : Les siècles obscurs du Maghreb, p. 410.
- 7 الترجمة العربية مادة : بربر .

